أبد التلال

إبراهيم أبو هشهش، فلسطين

أعشاب وأزهار برية
عند الحاجز العسكري في صباح الخامس من حزيران

وصلتُ الحاجز عند التاسعة والنصف. اليوم هو الخامس من حزيران. وجدتُ أمامي حوالي عشرين سيارة، ومن إيقاع الحركة والتفتيش قدَّرت أنني سأقف على الأقل ما يقارب الساعة أو أقل بدقائق. صباح هادئ وحرارة معتدلة. بدل أن أستغرق في التفكير في ذكرى الهزيمة التي كنا نظن أنها كبوة عابرة سرعان ما سننهض منها، وجدتني منصرفاً إلى تأمُّل سهل البالوع إلى يميني. هذا السهل من أخصب سهول فلسطين، كان يخصَّص عادة للزراعة الصيفية. هنا تتجمَّع المياه في الشتاء، فتبلعها الأرض وتسير في مساراتها الجوفية لتنبع من منطقة الديوك في أريحا. شعرتُ بامتنان لهذا السهل الذي يروي نخلاتي هناك. صار هذا السهل مهجوراً الآن، تغطِّيه الأعشاب البرية التي تنمو في ارتفاع قامة ولد في العاشرة.

على حافة الشارع نمت شجيرات الطيُّون خضراء يانعة، وستزهر في الخريف لتعبق برائحتها العطرية الثقيلة المدوِّخة، وبينها انتشر الخُرفيش اليابس الذي تحوَّل إلى اللون البني. في طفولتي ارتبط الخُرفيش برفوف لا حصر لها من الحسُّون الذي كان يجد غذاءه في بذور الخُرفيش اليابس... البذور الصغيرة السوداء التي نسمِّيها "قنبز". منذ سنوات طويلة جداً لم أرَ حسُّوناً واحداً في بلادنا. في السهل ارتفع الشوفان البري (السُّبِّيلة)، وتموَّج مع هبَّات النسيم الطفيفة. أما في الأرض اليابسة، على حافة الشارع، فاشرأبت أجيال متتالية من زهرة الهندباء العنيدة بلونها الأصفر—أزهار يبست وتحوَّلت إلى كتل قطنية كروية ناصعة استعداداً لانفصال البذور وطيرانها في مظلَّات حريرية بيضاء، وأزهار متفتِّحة، وأزهار في أكمامها. منذ كانون الثاني حتى الصيف لا تتوقَّف هذه الزهرة عن الحياة في كل مكان، وخاصة في الأرض الصلبة، وحتى في الإسمنت وحوافِّ الطرق المسفلتة. رأيتُ زهرة منها تدلَّت من جدار المرآب وأزهرت. يكفيها ذرة واحدة من التراب لتحيا وتزهر في بهجة، كأنها تناوب عن كل أزهار الربيع التي صُوِّحت.

إلى اليسار مستوطنة "بيت إيل"، وإلى الشرق منها بلدة بيتين. توزَّع انتباهي بين حركة السيارات أمامي ومشهد طائر مينا دخيل يعالج شيئاً ليأكله على يسار الشارع. انبعث من يميني تغريد حادٌّ جميل وسريع، نظرتُ، فإذا طائر صغير جداً، لعلَّه الفسفسة، يتأرجح على عود أخضر من الشومر البري ويغرِّد. امتلأ صباح الخامس من حزيران بتغريد طائر في حجم نحلة كبيرة، لكن فرقة موسيقية كاملة لا تحسن أن تأتي بمثل ألحانه. ابتسمت لنفسي من المفارقة الرمزية: طائر المينا الدخيل جهة المستوطنة حيث تصارعَ يعقوب في الليل مع الرب الذي باركه

وسمَّاه "إسرائيل"، والطائر الصغير المغرِّد الذي يعيش هنا منذ آلاف السنين إلى جهة المدينة، والجنود الذين يفتِّشون السائقين والسيارات يقفون في الأمام. شعرتُ كأنني أشاهد مسرحية تستعيد على نحو كاريكاتوري، ولكن مأساوي، مشاهد متخيَّلة من سفر يشوع:" (1) فقال الرب ليشوع: لا تخف ولا ترتعب. خذ معك جميع رجال الحرب، وقم اصعد إلى عاي. انظر. قد دفعت بيدك ملك عاي وشعبه ومدينته وأرضه، (2) فتفعل بعاي وملكها كما فعلت بأريحا وملكها. غير أن غنيمتها وبهائمها تنهبونها لنفوسكم."[1]

الجنود يقفون بين "بيت إيل" وعاي كما أمرهم الرب قبل ثلاثة آلاف عام. عاي التي هي الآن بلدة دير دبوان الجميلة. تقدَّمتُ مقدار سيارة واحدة، وخطر لي أن كل شيء تغيَّر ظاهرياً ما عدا الأرض والعصافير والأعشاب والأزهار البرية. واصلتُ التأمُّل في حافة سهل البالوع عن يميني، أعشاب يابسة تزحف بينها شجيرات القُبَّار بأزهارها الكبيرة البيضاء النهدية وثمارها التي تشبه الجوز. في طفولتي كنت أشاهدها في الحقول المحصودة، تتمدَّد خضراء بين الهشيم اليابس الأصفر.كنا نسميها مدِّيدة ونحذر من أشواكها الحادة. على جانب الشارع أجمات متفرِّقة من أشواك القوص بأزهارها الزعفرانية، ربما سُمِّيت بالزعفران البري بسبب لون أزهارها. إذا قطعت أحد أغصانها ستسيل منه نقاط بلون الحنَّاء كنا نكتب بها على الصخور أو ننقش بها أيدينا. زهرتها تزدهر منذ أوائل أيار حتى منتصف حزيران تقريباً. أحبُّ النباتات التي تزهر في غير فصل الربيع: في الخريف أحبُّ زهرة الودع (زعفران الخريف)، ومنذ كانون حتى منتصف الصيف تفتنني زهرة الهندباء.

لأول مرَّة أنتبه لوجود العلندى بهذه الكثافة هنا. وجدتني أنظر تلقائياً إلى باطن أصبعي الوسطى الذي حزَّه عود علندى أخضر أردت نزعه فحزَّ عميقاً في لحم إصبعي تاركاً جرحاً بليغاً ما يزال أثره بادياً بوضوح بعد كل هذه السنين. التبس عليَّ الأمر: هل العلندى هو نفسه ما نطلق عليه شعبياً اسم القُضَّاب؟ تحرَّكَت السيارة التي أمامي، فتقدَّمتُ مقدار ثلاثة أمتار. كنتُ متشوقاً لاجتياز الحاجز لأرى إن كانت قد تبقَّت بعض أزهار الخطمي، لكن يبدو أن ذلك سيستغرق خمساً وعشرين دقيقة أخرى على الأقل. الجنديان يشيران إلى سيارة فتتقدَّم ببطء وتقف إلى جانبهما، يفحص أحدهما بطاقة السائق بينما يفتِّش الآخر حقيبة السيارة. يستغرق هذا بضع دقائق، ثم يسمحان له بالمرور. غالباً ما ينشغل الجنديان بالحديث مع جندي آخر يجلس وراء المكعبات الإسمنتية في نقطة الحراسة، قبل أن يرفع أحدهما يده مشيراً للسائق التالي بحركة غير حاسمة، فيتردَّد السائق في الحركة حتى ترتفع اليد ثانية بإيعاز واضح بالتقدم.

أخيراً كنتُ أقفُ بسيارتي على رأس الدور. أشار لي الجندي فتقدَّمت، أوقفتُ السيارة وأطفأتُ المحرِّك. طلب أحدهما الهوية، وأمرني بفتح حقيبة السيارة. تحدَّثا معي بالعبرية فلم أفهم شيئاً سوى ما يعني صباح الخير وكيف حالك. حاولا الشرح، فلم يبدُ عليَّ أنني فهمت، فعلَّق كل منهما بندقيته على كتفه وسحب بسبابتيه طرفَي فمه، فعرفتُ أنهما يطلبان منِّي الابتسام. تقلَّصت عضلتا جانبَي وجهي بما يشبه الابتسامة، لكن نظرتي بقيت جامدة كما كانت، فبدا عليهما السرور وقالا أشياء لم أفهمها، ولكنني عرفت أنها استحسنا ذلك. في كل مرَّة، في مثل هذا الموقف، أتذكَّر

كيف تعلمتُ العبرية على يد العلامة الدكتور ربحي كمال، وبعد فصل واحد صرت قادراً، ببعض الصعوبة، على قراءة الصحف العبرية، ثم بعد ذلك امَّحت هذه اللغة من دماغي، وأخفقَت كل محاولاتي لتعلُّمها ثانية، وكأن هناك شيئاً داخلياً يرفضها. ناولني أحد الجنديين هويتي بعد أن فحص رقمها على هاتفه الجوال قائلاً "ساع [أي انطلق]"، فانطلقت.

حرصتُ على النظر إلى يسار الطريق حيث تزدهر أزهار الخطمي عادة على حافتَي مجرى الماء الجاف، فلم أرَ منها إلا نبتة واحدة فقط يبدو أنها نبتت متأخرة، فقد كانت نبتة غضَّة تحمل خمس أزهار زهرية فاتنة موشَّحة بلون بنفسجي تنحني نحو الأسفل. وعدا ذلك لم يكن سوى نباتات كثيرة: نبتة التسكرا أو شوكة الجمل القنفذية بلونها الفضِّي الأزرق الساحر، طالما فتنتني هذه النبتة التي تزدهر في مثل هذا الأوان! وفي كل مكان انتشر الشوفان البري وشعير إبليس الجاف، وأشواك القوص المزهرة في أواخر أيامها، وبقايا نبتة الحلبلوب الجافة (الفربيون) متشبِّثة بسفح الطريق، بينما ارتفعت مئات الأعلام على صَوارٍ قصيرة، كانت ترفرف بفتور في النسيم الخفيف الذي يهبُّ في صبيحة هذا الخامس من حزيران .

تجاوزت الإشارة الضوئية عند بوابة المستوطنة، واندمجت بالطريق السريع المتَّجه إلى الجنوب. إلى يميني بُرقة، وإلى يساري دير دبوان. تخيَّلت الكمين الذي أمر الرب يشوع بأن ينصبه لملك عاي بين بيت إيل وعاي: "(21) ولما رأى يشوع وجميع إسرائيل أن الكمين قد أخذ المدينة، وأن دخان المدينة قد صعد، انثنوا وضربوا رجال عاي، (22) وهؤلاء خرجوا من المدينة للقائهم، فكانوا في وسط إسرائيل، هؤلاء من هنا وأولئك من هناك. وضربوهم حتى لم يبق منهم شارد ولا منفلت، (23) وأما ملك عاي فأمسكوه حياً وتقدموا به إلى يشوع، (24) وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان عاي في الحقل في البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعاً بحد السيف حتى فنوا، أن جميع إسرائيل رجع إلى عاي وضربوها بحد السيف، (25) فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفاً، جميع أهل عاي، (26) ويشوع لم يرد يده التي مدها بالمزراق حتى حرم جميع سكان عاي، (27) لكن البهائم وغنيمة تلك المدينة نهبها إسرائيل لأنفسهم حسب قول الرب الذي أمر به يشوع، (28) وأحرق يشوع عاي وجعلها تلا أبدياً خراباً إلى هذا اليوم، (29) وملك عاي علقه على الخشبة إلى وقت المساء. وعند غروب الشمس أمر يشوع فأنزلوا جثته عن الخشبة وطرحوها عند مدخل باب المدينة، وأقاموا عليها رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم، (30) حينئذ بنى يشوع مذبحاً للرب إله إسرائيل في جبل عيبال."[2]

وصلتُ إلى مفترق الطريق، فانعطفت إلى اليسار متَّجها إلى أريحا. كنتُ أشعرُ بسكِينة عجيبة على الرغم من أنني لم أنسَ لحظة واحدة أن هذا اليوم هو الخامس من حزيران، وكيف أنسى ومئات كثيرة من الأعلام ترفرف على جانبَي الطريق. سرت متمهِّلاً في طريق ممتدَّة خالية إلا من بعض سيارات المستوطنين المسرعة. في مكان قريب من السفح شجيرات برية مختلفة بينها شجرة سنديان اجتُثَّت من أصلها بمنشار قبل أعوام. عندما حاذيتها لمحتُ غصنين يانعين يشرئبَّان مقدار متر من أرومتها الملتصقة بالأرض، فابتسمتُ، ولمستُ بسبابتي مفتاح مسجلة السيارة، فانبعثت موسيقى هايدن في كونشيرتو الفلوت.

أبد التلال
(أغنام بلدية ورعاة أشكناز)

أوقفنا مندوب ربِّ الجنود الواقف خلف مربَّعات إسمنتية على حاجز المحكمة أو حاجز "بيت إيل"، حيث تصارع الربُّ مع يعقوب وجثم على صدره وكسر حقوه ورفض أن يتركه عنه حتى يباركه، فقال له: "انهض فأنت إسرائيل". كان هذا جندياً قصير القامة ذا ملامح شرقية. اكتفى بسؤالنا: "إلى أين؟" فأجبته بالعربية الفصحى: "إلى أريحا"، فأشار بيده كلِّية القدرة أن نمرَّ، فمررنا. لم يتفقَّد بطاقاتنا. قبل أن نتحرَّك لمحت الجندي الواقف خلف بندقيته ذات المنظار في برج الحراسة. قلت لصديقي: يستطيع قنَّاص البرج هذا أن يقتلنا بذريعة ما، ولن يتحقَّق أيُّ شخص من صدق دعواه. وتذكَّرنا معاً ما يزيد عن ثمانين شهيداً من الفتية قُتلوا جميعاً في الانتفاضة الثانية برصاصة في العين اليمنى. قنَّاصة متمهِّلون سدَّدوا عليهم بكل تأنٍّ وأردوهم وكأنهم يختبرون مهارتهم لا غير. ردَّدت بصوت مسموع أبيات محمود درويش:

"أقول لمن يراني عبر منظارٍ على برج الحراسة:
لا أراكَ، ولا أراكَ
أرى مكاني كلَّه حولي. أراني في المكان بكل
أعضائي وأسمائي. أرى شجر النخيل ينقِّح
الفصحى من الأخطاء في لغتي
(...)
أرى ما لا يُرى من جاذبية
ما يسيلُ من الجمال الكامل المتكامل الكليِّ
في أبد التلال، ولا أرى قنّاصتي."[3]

ها هي بلادنا حولنا، ولكننا نمرُّ منها مسرعين، فأيُّ توقُّف قد يثير ريبة جندي ينظر إلى العالم من خلال منظار بندقيته. جو شتائي رائق مشرق، كانون الأول هو شهر الشمس الساطعة، ولذلك يسمَّى "شهر الحرَّاثين". تأخَّر المطر، لكن الأرض اخضرَّت هنا وهناك من الهطول السابق. على يسارنا بيتِّين، ثم مستوطنة لم أحاول معرفة اسمها على الرغم من أنني مررت من أمام بوابتها مئات المرَّات. أرى فقط الجنود قصار القامة خلف مربعاتهم الإسمنتية، وفتيات بفساتين طويلة في موقف الباص. نصل إلى الشارع السريع الذي يتوجَّه جنوباً إلى القدس، فنندمج فيه. على يسارنا تبدو أول فِلل دير دبوان، وإلى اليمين بُرقة ببيوتها الجميلة ومئذنة مسجدها الباسقة، ثم أرض خلاء تتخلَّلها أشجار زيتون وأجمات متفرِّقة من السنديان والسمَّاق. ننعطف يساراً حيث تلال مخماس المتلاحقة، وإلى يميننا البرية التي تمتدُّ حتى الغور، وتُسمى جثة دير دبوان. تتخلَّلها مروج كانت تزرع بالقمح وترعى فيها الآلاف من الأغنام. من زمن طويل لم أشاهد أيَّ سرب من غزال الجبل الفلسطيني يركض في هذه البرية، ولكنني رأيت جثة

ثعلب تلتصق بالطريق تماماً، ولم يبقَ سوى الذيل الذي يتموَّج بنعومة بسبب الهواء الخفيف الذي يهبُّ عليه. طريق مستوطنات تتلوَّى صاعدة بين التلال إلى اليمين طالما أحببت أن أسلكها، لكن الأمور صارت خطيرة الآن.

تنعطف الطريق إلى اليسار، إلى جانب الشارع نبتت شجرة تين وحيدة في مجرى ماء المطر. هنا اصطدم طائر جميل بزجاج سيارتي، وانفصل عن سربه إلى الأبد. كنت عائداً من أريحا في حالة من الصفاء التام حين قرر هذا الطائر أن يعبر إلى السفح المجاور إلى يمين الشارع. أتذكَّر ذلك كل مرَّة في الذهاب والإياب وكأنني أمرُّ بضريح شخص أعرفه. إلى اليمين وادٍ صخري سحيق، يتلوَّى بين الجبال الصخرية القاسية، كان أيام الخير والمطر الغزير يهدر هديراً وهو ينحدر مسرعاً إلى الغور ليصبَّ في وادي أريحا في طريقه إلى البحر الميت. نصل إلى دوَّار الطيبة الذي صار يسمى "دوَّار كراميلو". بيت وحيد تحيط به الأشجار إلى اليمين مقابل برج الحراسة الخالي اليوم من الجنود. هنا تبدأ المعرَّجات. طريق ضيقة تتلوَّى منحدرة انحداراً سحيقاً، لكنها تعبر أرضاً سهلية نوعاً ما، في البداية كانت تزرع بالقمح والشعير، أما الآن فلا بدَّ أن ترى هناك قطيعاً لا يقل عن مائة رأس من النعاج البلدية، وحماراً عليه بردعة وخُرجان، يجلس بالقرب منه راعٍ أشكنازي أمرد بسالفين طويلين. إذا كان الجوُّ رائقاً ونظرت إلى اليمين، فسترى البحر الميت لامعاً من بين رؤوس التلال الجرداء التي تبدو كأنها جزء من تضاريس القمر. أما إذا نظرت أمامك فسترى الغور يمتدُّ على اتساع البصر، حيث سهول أريحا والشُّونة الجنوبية ومن بعدها تبدأ الجبال بالارتفاع. وإذا تجوَّلت بناظريك من اليسار إلى اليمين، أي من الشمال إلى الجنوب فسوف ترى مشهداً يمتدُّ من السلط إلى ناعور. أحاول أن أتبيَّن أماكن بعينها، لكن سرعة السيارة وانتباهي للطريق لا يسمحان لي بتأمُّل المشهد كما أريد.

باتت التلال خالية من المضارب البدوية ولا تجوبها الآن إلا قطعان المستوطنين. عند منعطف حاد يجلس غلامان أشكنازيان يحملان عصيّاً ويتفحَّصان في وجه كل سائق يمرُّ بهما. قبل أقل من سنتين كان مرأى دبَّة قطبية تتجول مع دياسمها في هذه البرية أكثر واقعية من وجود هؤلاء، ولكن الواقع الغرائبي صار يسمح بأعجب العجائب. بعد مسافة قصيرة كان يقف مستنداً إلى درابزين الطريق غلام أمرد متورِّد الخدَّين بملامح أوكرانية أو ليتوانية، وسالفين أشقرين طويلين، وقلنسوة المتدينين القوميين المنسوجة، وفي يده عصا ملساء طويلة من النوع المستعمل للمكانس. يبدو مرآه غريباً في هذا المكان المقفر. في طريق العودة كان ما يزال في مكانه وخلفه على المنحدر السحيق قطيع من الماعز البلدية السوداء. في الوادي، أسفل المنحدر، بؤرة مستوطنة رعوية لاحظنا اليوم أنها ازدادت كوخاً جديداً بسطح مثلث قرميدي أحمر. ما زلت غير مصدِّق أن هذه الماعز لا تشعر أن راعيها لا يمتُّ بأيِّ صلة لأيِّ شيء هنا. وهذا شعور استولى عليَّ عندما كنت أرى يومياً بضعة كلاب بلدية تألف جنود حاجز الكونتينر. كانوا يقدِّمون لها شرائح المارتديلا وهي تستلقي عند أقدامهم بألفة تامة. أحسست أن الخراف والماعز والحمير كائنات خائنة كالبشر لأنها رضيت أن تسير بهذه الطمأنينة خلف هؤلاء الغزاة، رغم أنها مسروقة من رعاة بدو في الغالب.

لم يبق في المكان أيُّ قرية بدوية، فقد أزيلت جميعها واختفت معها عشرات القطعان التي كانت ترد على قناة نبع العوجة. الأراضي الشاسعة التي كانت تروى من هذه القناة الغزيرة أصبحت قفراء تتخلَّلها خنادق عميقة حفرتها الآليات لتمنع تنقُّل البدو. قبل سنوات مررت من هنا في أصيل أحد الأيام متوجِّها إلى الجسر، فشاهدت

على يمين الشارع بضع عشرة فتاة بدوية يلعبن كرة القدم على قطعة أرض مهَّدنها لهذه الغاية. كنَّ في غاية الاندماج في لعبهن، ولا يُسمع من خلال أصواتهن المبتهجة إلا صافرة الفتاة التي كانت تحكم المباراة. ما زلت أسمع صيحاتهن المبتهجة تتردَّد في خيالي وتملأ المكان الذي أُجبر قاطنوه على هجره.

في زمن سابق، كانت هنا حقول لا نهاية لها تقف فيها يومياً عشرات شاحنات المرسيدس التي تنتظر شحنها بصناديق البندورة والخيار والموز الريحاوي المعطَّر لتنقلها إلى الكويت والسعودية، أما الآن فـ"الدار قفرا والمزار بعيد". وحتى قناة العوجة لم أعد أجرؤ على الذهاب إليها، وكأنني لم أقضِ هناك مساءات خريفية رائقة لم أسمع فيها إلا خرير الماء المندفع من الجبل، وغناء صرَّار الليل، بينما تلمع اليراعات المضيئة بلونها الفسفوري الأخضر أو الأصفر أو الأحمر. كنا نسمِّيها "سراج الغولة"، وطالما أثارت خوفي في طفولتي من الغولة التي تحمل سراجها وتسير غير مرئية في العتمة. كنتُ أجلس هناك مترقِّباً أن تأتي الثعالب لتشرب، فأرى عيونها تلمع كأنها أضواء. تمنَّيت لو آتي هنا مرَّة في الفجر لمشاهدة الغزلان وهي ترد على الماء. الآن يجلس هناك مستوطنون. آخر مرَّة جئنا فيها إلى هذه القناة في الليل تفاجأنا بوجود بضع عشرة مجنَّدة يجلسن أو يستلقين على الأرض هناك. كان على مبعدة منهن كهل مقدسي ألحَّ عليَّ أن أجلس وأشاركه شرب الشاي طالباً منِّي أن أتجاهلهن، فهن لا وجود فعلياً لهن. قال لي: تعال اشرب شاي وانسَ وجودهن، فأنا شخصياً لا أراهن. لكنني كنت أراهن وأتوجَّس خيفة على مستقبل القناة، فغادرت وقد عرفت أن هذا آخر عهدي بهذا المكان. لا أعرف لماذا كلَّما ذهبتُ هناك كنتُ أتذكَّر وادي الشتا ونبع البحاث والطريق التي تصعد من هناك إلى مرج الحمام. الأماكن تبقى ويتبدَّل ساكنوها. أما الآن، فهذي بلادي كلُّها حولي وتلك بلادنا كلُّها حولنا، وهؤلاء الآن هنا، ومعهم بنادقهم سريعة الطلقات، ولهم مستوطناتهم المحاطة بالأسلاك الشائكة وأبراج الحراسة، ولا بلاد حولهم. حتى أن الكهل المقدسي لا يراهم وهو يشرب الشاي ويدخِّن سيجارته التي تتوهَّج في العتمة كأنها عين حمراء تحرس المكان، أو كأنها سراج أُمِّنا الغولة تتجوَّل ليلاً في أبد التلال.

إبل ترعى في التلال
قرب الحاجز العسكري وأعلام كثيرة جداً ترفرف

منذ أسابيع لم أرَ المستوطنين الأشكيناز وقطعانهم من الأبقار والنعاج البلدية أوالماعز البلدي الأسود على تلال المعرَّجات المشرفة على الغور، فلا بدَّ أنهم انتقلوا إلى أماكن أخرى، مع أن البلاد قد أخصبت هذا الربيع، وارتفع العشب مقدار قدمين على هذه التلال التي ظلَّت جرداء في السنوات الأخيرة بسبب شحّ الأمطار.

على جوانب الطرقات في كل مكان انتصبت أعلام، الآلاف منها، وعلى كل صخرة أو مكعَّب إسمنتي رُسمت النجمة السداسية وبداخلها خارطة فلسطين. أسلوب التوكيد في اللغة يُلقى على سامع متشكِّك، وكلَّما ازداد تشكُّكه كثرت أدوات التوكيد وتعدَّدت أساليبه. الأعلام والشعارات والرعاة الذين يقلِّدون البدو العرب في غطاء الرأس، هي أدوات توكيد، وكذلك نساؤهم المحتشمات اللواتي يحضِّرن القهوة العربية على النار، ويعددن قلاية البندورة، ويطبخن المقلوبة في حقول الزيتون المستولَى عليها... كلُّها أيمان مغلَّظة تسعى إلى توكيد رواية مختلَقة ويقين مزعزع.

"المغلوب مولَع بتقليد الغالب"، لكن قاعدة ابن خلدون الشهيرة هذه انعكست في هذه التلال. الغالب هنا ليس بالضرورة هو من ينصب الحواجز العسكرية ويمنع التجول، ويتجوَّل في البلاد مدجَّجاً بالقوة والجبروت، بل ربما هو هنا مَن صودرت أرضه، من يقف على الحاجز للتفتيش، من كان يتجوَّل بقطعانه منذ آلاف السنين في هذه التلال، من يعقد الحطة على رأسه على طريقة الحجَّارة، من يمتطي منذ عشرة آلاف عام حماره أمام القطيع.

يمكنهم أن يستسلموا لاستيهامات ميثولوجية، ويحضروا ماضياً متخيَّلاً ويضعوه في هذا الحاضر المقيَّد بالخرافات والتاريخ والقوانين العسكرية والأوامر الإدارية والنار والدم، ويوزعوه فوق تلال فلسطين وجبالها، ويجعلوا فتى مولوداً في بروكلين يتجوَّل بقطيع وحمار مسروقَين في هذه المراعي المحتلة، فهل هذا نهاية المطاف؟

عندما كنتُ عائداً من أريحا قبل يومين، تفاجأت بقطيع من الإبل يرعى قرب الحاجز العسكري المعروف باسم "حاجز كراميلو" على دوَّار بلدة الطيبة. كان قطيعاً من حوالي ثلاثين رأساً متماثلة في اللون ما تزال فتيَّة، وكان أربعة جنود وراعيان مستوطنان على قمَّة رأس كل منهما قلنسوة منسوجة تميِّز المتدينين القوميين—يقفون قربها مثل مجموعة من سيَّاح غربيين يتأمَّلون باندهاش مشهداً أصلانياً. إذن هذه آخر تقليعة، فالماعز والنعاج والحمير لم تعد تكفي، بل يجب أن يكتمل المشهد بالجِمال أيضاً، فيعقوب عندما عاد من عند خاله لابان بن بتوئيل في فدَّان أرام "... حمل أولاده ونساءه على الجمال، وساق مواشيه وجميع مقتناه الذي اقتنى، مواشي اقتنائه التي اقتنى في فدَّان أرام، ليجيء إلى إسحق أبيه إلى أرض كنعان."[4]

هذه البلاد التي عبرتها الجيوش والحضارات منذ آلاف السنين، تحوَّلت إلى معدة هائلة بأحماض هاضمة شديدة الفاعلية، إذ لا يمكن تعداد العائلات الألمانية والفرنسية واليونانية والإيطالية التي تعرَّبت منذ الحروب الصليبية وأصبحت جزءاً أصلياً من النسيج الديموغرافي والثقافي الفلسطيني. فهل سيتمكَّن راعي الحيران هذا القادم من بروكلين بعد مائة عام من إلقاء قصيدة من الشعر البدوي أو الشعبي؟ هل سيتمكَّن من مناداة الجِمال بالأصوات التي تدعوها للورود على الماء أو التجمُّع في المراحل والمبيت في المعطن؟ وهل سيتمكَّن من تسمية الأعشاب والأزهار والأشواك والطيور والحشرات بأسمائها الشعبية كما في لهجات بلاد الشام؟ هل سيكون قادراً على التمييز بين خَلَّة وشِعب وصَفحة ومَارِس ومِعْناة..إلى آخره؟ هل يكفي أن يُطلق على الينابيع أسماء، مثل "نبع بنيامين" أو "أليعازر" أو "بتسلئيل" ليتحوَّل خريرها إلى لغة أخرى؟ أم هل يكفي أن يحوِّل مقامات الأولياء والمتصوِّفة وشهداء الحروب الصليبية إلى أسماء شخصيات توراتية ليؤكِّد لنفسه أنه ابن هذه البلاد؟ أم سيواصل الاستعانة على كل ذلك بالدبابة والبندقية والطائرة العمودية وآلاف الأوامر العسكرية؟

ريفيرس
سيرة شخصية ليوم اعتيادي
في مملكة يهودا والسامرة أو أوسلو في عامه الثالث والثلاثين

ربما لم يكن من الحكمة الذهاب إلى أريحا في هذا اليوم، إلا أنني قرَّرت الذهاب حتى بعد أن عرفت ما جرى في

قرية تِل. تفقَّدت وضع الحواجز على موقع "استعلامات فلسطين"، فوجدت أن الحواجز التي سأمرُّ بها سالكة. كان ذلك مكتوباً باللون الأخضر أمام اسم كل حاجز من الحواجز الثلاثة: المحكمة ("بيت إيل") والطيبة ("كراميلو") و"البنانا" في مدخل أريحا، بالإضافة إلى طريق المعرَّجات التي كانت سالكة أيضاً.

كانت محطة الوقود مقفلة بشريط أحمر من النوع الذي تضعه الشرطة حول الموقع الذي وقعت فيه جريمة، مع ذلك واصلت طريقي باتجاه حاجز "بيت إيل" بنصف خزَّان وقود آملاً أن أجد محطة وقود في أريحا. وجدتُ أمامي عدداً قليلاً من السيارات، لكن الحاجز كان مغلقاً أو أنه لمّا يفتح بعد. بعض السيارات يئست واستدارت، أما أنا فقرَّرت البقاء، أمامي كان باص كوستر فيه بعض الركَّاب. تأملتُ سهل البالوع، لم يلفت انتباهي سوى الشومر البري الذي ارتفع في بعض الأماكن حوالي ثلاثة أمتار، تعلوه أزهار حديثة التفتُّح بلون يحتاج إلى عيني امرأة لوصفه، أما أنا فسأقول إنه أصفر فستقيٌّ، إن جاز التعبير. جاءت سيارة تاكسي ونزل منها السائق وفتاتان مبتسمتان، وناولني حبة شيكولاته قائلاً هذه حلاوة النجاح. هاتان الفتاتان نجحتا وستذهبان إلى أريحا بهذا الباص. من كل مكان ارتفعت أصوات المفرقعات ابتهاجاً بالنجاح. دائماً أتخيَّل أن الأخوة الأصغر سناً هم الأكثر احتفالاً بنجاح الأشقَّاء والشقيقات، وهم الذين جهَّزوا المفرقعات قبل وقت طويل.

أنتظرتُ ساعة كاملة أطفأتُ أثناءها محرِّك السيارة مبقياً على المذياع فقط. أخيراً فتح الحاجز وبدأ تحرُّك السيارات ببطء شديد. عندما كنتُ على رأس الدور جاءت سيارة إسعاف تابعة للهلال الأحمر الفلسطيني وتقدَّمت مباشرة إلى الحاجز. ظلَّت واقفة ما يقارب سبع دقائق، ثم رأيتها ترجع إلى الخلف قبل أن تتقدَّم ثانيةً ويُسمح لها بالعبور. عندما وصلت إلى الحاجز اقتربت كثيراً من المكعَّبات الإسمنتية التي يقف الجندي وراءها نزولاً عند أوامر الجندي قبل أسبوعين: "Next time come closer".

بادرني الجندي الجالس وراء الحاجز بقوله: "السلام عليكم، كيف الحال، هل أنت بخير؟" تمتمت بما يعني ردَّ التحية، مفكِّراً في نفسي: يتصرفون هنا بتهذيب موظَّفِي استقبال في فندق فاخر من غير أدنى شعور بأن هذا التهذيب الكاذب يتناقض جوهرياً مع كل شيء يمارسونه، بما فيه هذا الوقوف الطويل المذلِّ على تسعمئة وستين حاجزاً من شمال الضفة حتى جنوبها. المهم أنني انطلقت أخيراً وانصرفت كعادتي إلى تأمل الطريق. كان على طول الجانب الأيمن من الطريق ما يشبه السياج المتصل من شجيرات الشومر التي ارتفعت ارتفاعاً غير مسبوق بسبب غزارة الأمطار في الشتاء الماضي. دائماً تزدهر الأشجار والنباتات على جانبي الطريق، فهي تكون في مقلب الماء الذي يسقط على الطرق. كانت أزهار الشومر تكاد تلامس عشرات الأعلام الزرقاء والبيضاء التي مزَّقتها الرياح.

عادة ما أذهب إلى أريحا بسبب الطريق التي تشعرني بعزلة وتتركني مستسلماً لأفكاري التي تتداعى في كل اتجاه. تأمُّل البرية يشعرني بأنني جزء ضئيل من هذا الكون الخالد، مثلي في ذلك مثل العصافير والثعالب والعظاءات والنباتات والنجوم والكواكب والرياح...إلى آخره. أحبُّ بالذات الطريق المستوية التي تنعطف يساراً من الطريق الرئيسي المتَّجه جنوباً إلى القدس، وتمرُّ بين أراضي بلدَتي مخماس ودير دبوان التي صارت الآن مسرحاً لأنشطة "فتيان

التلال"، ثم طريق المعرَّجات بعد حاجز الطيبة حيث ينفتح أمامك مشهد بانورامي يشمل الغور وجبال البلقاء.

عندما انعطفتُ يساراً إلى الشارع المستوي استسلمت لأفكاري كعادتي، ولم أنتبه إلا في الثانية الأخيرة بأن سيارة حمراء صغيرة فيها ثلاثة فتيان تكاد تلتصق بسيارتي محاولة دفعها عن الطريق. ارتفع الأدرينالين من الصفر إلى المئة دفعة واحدة، فابتعدت بسيارتي وحافظت على سيطرتي على المقود. لاحقتني السيارة حوالي مئتي متر بهذه الطريقة ثم تجاوزتني وصارت أمامي مبطئة سرعتها إلى أدنى حدٍّ، وهذا ما فعلته أنا أيضاً وأنا أنظر في المرآة آملاً أن تمرَّ سيارات عربية، ولكن الطريق كانت شبه خالية سوى من بضع سيارت مستوطنين تتجاوزنا مسرعة من الاتجاه المعاكس. فكَّرت باحتمال أن تتوقَّف سيارتهم أمامي ويترجَّلوا منها حاملين هراواتهم ومسدساتهم وعبوات رذاذ الفلفل، ورسمت خطة للإفلات بتجاوزهم بأقصى سرعة ممكنة، ولكن سرعان ما رأيت أن ذلك يحتمل خطراً أكبر، فقد يطاردونني حتى المنعطفات الخطيرة التي تمرُّ من فوق جرف هارٍ يخترقه وادٍ صخريٌّ شكَّلته السيول في عصور جيولوجية سحيقة. فكَّرت أن الانعطاف في اللحظة المناسبة ثم الاستدارة والعودة إلى الطريق الرئيسي حيث تزداد حركة المرور والسيارات العربية، هو الحل الأمثل، ولكن لم أنفِّذ أياً من الخطتين لأن السيارة الحمراء انطلقت بسرعة شديدة وسرعان ما اختفت من أمامي.

وصلت أخيراً إلى حاجز "البنانا" على مدخل أريحا الشمالي، فوجدت سيارة عسكرية تقف في عرض الطريق مقفلة ممرَّ الدخول. أبطأت السرعة، فرأيت جندياً يقف على الأرض يشير بيده بحركة تعني أن عليَّ الرجوع. كانت أمامي سيارتان رجعتا عن الحاجز، وكان أحد أصدقائي بالصدفة في واحدة منهما، فقرَّرنا أن نذهب ثلاثتنا عن طريق العُوجة. وهكذا سرتُ خلفهما بسرعة تتراوح بين مئة ومئة وعشرة كيلومترات في الساعة، ومع ذلك سرعان ما اختفيا من أمامي، فقد كانا يقودان بسرعة فائقة. واصلتُ السير حتى شارع 90 السريع الذي يربط أقصى جنوب فلسطين بأقصى شمالها من جهة الشرق مخترقاً النقب وغور الأردن وبيسان. انعطفتُ إلى محطة وقود قريبة، وسألت رجلاً يصبُّ الزيت في محرِّك شاحنته الصغيرة عن وضع الطريق، فقال إن جميع مداخل أريحا ومخارجها مغلقة. سألته هل يوجد وقود في المحطة، فقال لا توجد قطرة وقود واحدة في كل محطات أريحا، وذكر أنه ملأ خزان سيارته بخمسمئة شاقل من محطة فَصايل، وأين تقع فَصايل؟ فقال على بعد خمسة عشر كيلومتراً إلى الشمال من هنا. "وكيف أذهب؟" فقال: اتبعني أنا ذاهب إلى هناك، بعد "الرمزون [الإشارة الضوئية]" بحوالي مئة متر تكون المحطة إلى اليسار.

انطلقنا وسار أمامي بسرعة شديدة. كنتُ أسير بسرعة مائة وعشرين، ولكنه ظلَّ يسبقني بمسافة طويلة. كان هذا الطريق سريعاً تحفُّ به بساتين النخيل وشاخصات متتالية تحمل أسماء مستوطنات وقرى زراعية بالعبرية والعربية. ربما لم أشعر بيأس طوال حياتي مثلما شعرت ذلك اليوم. التصرُّفات البديهية الاعتيادية للمستعمرين توحي بأنهم هنا منذ مئات السنين، جرَّاراتهم الزراعية التي تقطر خلفها عربات طويلة موسوقة بصناديق الخضار أو أكياس السماد، واليافطات التي تنبِّه السائقين بأن مركبات زراعية تعبر الشارع، والنساء الشقراوات بمناديل رأس زرقاء إلى جانب أزواجهن بلحاهم الصهباء ونظَّاراتهم الشمسية، والاسترخاء التامُّ الذين يعيشون به أيامهم، والبلاد التي أخذوها قبل أن أعرفها... تذكَّرت المقولة الشهيرة لمهندس أوسلو الذي ردَّ على سؤال عن هذا المشروع

بقوله: "إما أن يفضي بنا إلى الدولة أو إلى الكارثة". ها نحن قد بلغنا أحد الاحتمالين، فقد صار في وسع فتى في السادسة عشر أن يقف مغلِقاً السبيل أمام بلدة يقطنها عشرة آلاف فلسطيني، فتى بقميص أبيض قادر برسالة قصيرة على هاتفه المحمول أن يحرِّك وزارة حرب كاملة بجنرالاتها وشاحناتها العسكرية وجنودها المؤتمِرين بأمره.

في سياق هذه الأفكار، وجدتُني أقف أمام الإشارة الضوئية، وبعد أن تجاوزتها رأيتُ شاخصة تشير إلى استراحة ومحطة وقود على بعد خمسمائة متر. تفاجأت أن المحطة كانت إلى يسار الشارع، ولم يكن هناك أي تحويلة تؤدِّي إليها، فواصلت القيادة متجاوزاً المحطة على أمل وجود مثل هذه التحويلة، ولكني ارتكبت حماقتي الثانية منذ الصباح عندما قرَّرت الانعطاف على الطريق السريع في مكان غير مسموح به. كنت أعرف أن في ذلك مخالفة لا تقلُّ عقوبتها عن حجز السيارة ومحكمة وغرامة مالية باهظة، ومع ذلك فعلتُ مستثيراً غضب المستوطنين الذين عبَّروا عن ذلك بإطلاق أبواق سياراتهم باستنكار، ولكن عقلي كان قد عزب عني في تلك اللحظة. رجعتُ إلى المحطة، فوجدت أن سيارة تقف في مدخلها فظننتُ أن هذا هو المخرج وسيكون المدخل هو الآخر، ولكن العكس كان هو الصحيح، فتحيَّرت، ثم أشار عليَّ مستوطن يلتقط صوراً مع زوجته إلى جانب الشارع بأن أرجع إلى الخلف قائلاً بالإنجليزية: "ريفيرس، هل تعرف ما معنى ريفيرس؟" فأومأت إليه أن" "نعم". رجعتُ إلى الخلف، وعندما وصلت إلى المدخل المنحني اضطررت إلى العودة، لأن سيارة كانت تخرج، وتكرّر ذلك ثلاث مرات حتى نجحتُ أخيراً في الدخول، فوجدتُ شاباً عربياً يملأ خزان سيارته، فعرفتُ أن الخدمة ذاتية. دلَّني على وجوب الدفع في الداخل، هناك كان شاب عربي يخدم العملاء في حانوت يبيع مشروبات ولوازم مختلفة. أعطيته النقود وساعدني في تعبئة الخزان بعد أن ركن سيارته. وهكذا انتهت رحلتي إلى أريحا في يوم الجمعة الثقيل ذاك الذي بدا كأنه فاتحة حقبة جديدة من تاريخنا.

على حافة الأسطورة

في طريقنا إلى أريحا قبل ثلاثة أسابيع، وبعد أن انتهينا من منطقة المعرَّجات، واستوت الأرض في ما يشبه السهل الواسع الذي يمتدُّ من الشارع حتى قناة نبع العوجا، شاهدنا إلى شمال الشارع المسفلت راعياً مع قطيع صغير من الجداء السوداء، وهو مشهد مألوف هنا منذ آلاف السنين، وخاصة هذا النوع من الماعز الأسود الصغير الحجم الذي كاد ينقرض. كنا نسميه "بدّيوي" فهو يشبه السلالة البلدية السوداء، ولكنه أصغر حجماً، وأصبر على الجوع والعطش ويرضى بالقليل، فضلاً عن مقاومته للأمراض. وهناك حديث نبوي يشبِّه المؤمن بالشاة الأعرابية التي تقضم قضماً، ولا تخضم خضماً.

كل شيء سيكون عادياً لو أن هذا الراعي لم يكن فتى أشكنازياً أشقر بعينين زرقاوين وجديلتين شقراوين تتدليان من سالفيه، إضافة إلى قلنسوة المتدينين القوميين البيضاء التي تعتلي قمة رأسه الأشقر الصغير. تمهَّلتُ قليلاً عندما حاذيتُه، وقلت: "حتى أنتَ صرتَ راعياً أيها الغلام؟" فنظر إليَّ بعينين واسعتين مندهشتين. لعلَّه كان غير مقتنع تماماً بدوره هذا، ولكنه ظنَّ ربما أنه سيقتنع حين يعيش الدور ويندمج فيه: دور الراعي "الإسرائيلي"

القديم الذي كان يتجوَّل بماعزه في برِّية القدس. لأول مرة ينقلب المشهد هنا ويغدو الغالب مولعاً بتقليد المغلوب. أردتُ أن أقول له: "ينقصك أيضاً كلب الراعي الفلسطيني، الكلب الكنعاني ذو الجسم الغزلاني والذيل المرفوع إلى أعلى على شكل حلقة متداخلة." ولكني مضيت في طريقي، فهو لن يفهمني على أيِّ حال.

حين عدنا بعد ثلاث ساعات، كان الراعي الأوروبي ما يزال في مكانه، والغريب جداً أن القطيع الصغير كان يقف ساكناً لا يتحرَّك، ولا يرعى، فليس في ذلك المكان في هذا الوقت سوى التراب الأمغر. وهو أمر غريب لمن اختبر الخروج إلى الجبال بقطيع من السُّخول، لأنها ستجبره على الهرولة خلفها عشرات الكيلومترات. ولكن جداء هذا الولد كانت ساكنة مثله.

في المرات التالية التي نزلت فيها إلى أريحا عن طريق المعرَّجات لم أشاهد الراعي الأشكنازي وسخوله الأعرابية السوداء. لا مجال للشك أن وقوفه هنا كان مجرد إعلان أوَّلي عن تحويل هذا السهل الرحب الذي يمتدُّ على عشرين ألف دونم، وما فيه من ماء متدفِّق غزير، إلى محمية رعوية استيطانية، تمهيداً للاستيلاء عليه. ولكنهم يعملون بدأب ومثابرة ونفس طويل. ونحن نأمل أن يتغلَّب نفسنا الطويل على نفسهم الطويل. من الأفضل لهذا الفتى أن يعتمر بدل هذه القلنسوة الصغيرة قبعة لها حافة تتدلَّى وتغطي العنق من الخلف، كي لا تغلبه شمس أريحا الحارقة التي لا يمكن لبشرة مثل بشرته الشقراء احتمالها. فتخصَّه بأمراض جلدية خاصة به، مثلما فعلت شمس أستراليا بجلد الرجل الأبيض الذي استعمر أرض تلك القارة البعيدة، بعد أن ربط سكانها الأصليين بسلاسل معدنية غليظة من أعناقهم، وسلك كل عشرين أو ثلاثين منهم معاً تحت حراسة مستعمر أبيض يعتمر قبَّعة صيادين من الفلين ويرتدي بنطلوناً خاكياً قصيراً، ويتنكَّب بندقية بماسورة طويلة... ثم وضعهم في محميات معزولة.

ولكن مشروع هذا الفتى، المندهش مثل سائح، تأخَّر بضع مئات من السنين، ولم تكتمل جريمته التي قامت على عنف تأسيسي، مثلما اكتملت مشروعات أسلافه من البيض المستعمرين في أمريكا وأستراليا ونيوزيلاند، فنحن هنا أيضاً كل يوم

الإحالات

[1] **العهد القديم**، يشوع (8: 1-2).

[2] **العهد القديم**، يشوع (8: 21-30).

[3] محمود درويش، **لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي** (بيروت: رياض الريِّس للكتب والنشر، 2009)، 32.

[4] **العهد القديم**، التكوين (31: 18).